وصف عبد العزيز

خوفه من الله . عــدله . بساطته . حبه للرعية
عطفه على الضعفاء ورعايته للعلماء والطلاب
كان عبد العزيز « مهدي زمانه »

قال ابن بشر :

(كان عبد العزيز كثير الخوف من الله ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر .

لا تأخذه في الله لومة لائم، ينفذ الحق ولو في أهل بيته وعشيرته، لا يتعاظم عظيماً إذا ظلم فيقمعه عن الظلم وينفذ الحق فيه، ولا يتصاغر حقيراً ظُلِم فيأخذ له الحق ولو كان بعيد الوطن .

وكان لا يكترث في لبــاسه ولا سلاحه ، بحيث أن بنيه وبني بنيه محلاة سيوفهم بالذهب والفضة ، ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل .

وكان لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس ويصلي فيه صلاة الضحى .

وكان كثير الرأفة والرحمة بالرعيــة ، وخصوصاً أهل البلدان ، بإعطائهم الأموال وبث الصدقة لفقرائهم والتفحص عن أحوالهم ، وقـد ذكر لي بعض من أثق به أنه يكثر الدعاء لهم في ورده ، قال وسمعته يقول :

« اللهم أبقِ فيهم كلمة لا إله إلا الله ، حتى يستقيموا عليهــا ولا يحيدوا عنها . »

شيوع الأمن والطمأنينة :

وكانت الأقطار والرعية في زمنه آمنة مطمئنة في عيشة هنيئة ، وهو حقيق بأن يلقب : **مهـــدي زمانه** ، لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت ، شتاء وصيفاً ، يمناً وشاماً ، شرقاً وغرباً ، في نجد والحجاز واليمن وتهامة وغير ذلك ، لا يخشى أحداً إلا الله لا سارقاً ولا مكابراً ، وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والوشم والجنوب وغـــير ذلك من النواحي في أيام الربيع يسيبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الإبل والخيل والجيـــاد والبقر والأغنام وغير ذلك ، ليس لها راعٍ ولا مراعٍ بل إذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع أو يحتاج لها أهلها لسقي زروعهم ونخيلهم ، وربمـــا تلقح وتلد ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت وولدها معها ، إلا الخيل الجياد فإن لهـــا من يتعاهدها في مفاليها لسقيها وحدوها بالحديد ، وكانت إبل أهل سدير ونجائبهم وخيلهم مسيبات أيام الربيع في الحمـــادة وفي اراط والعبلة ، ومعها رجل واحد يتعاهدها ويسقيها ويزور أهله ويرجع اليها وهي في مواضعها فيصلح ربطها وقيودها ثم يغيب عنهـــا . وكذلك خيل أهل الوشم ونجائبهم في الحمادة وفي روضة محرقة وغيرهما وهكذا يفعلون بها. وكذلك خيل عبد العزيز وبنيه وعشيرته في النقعة — الموضع المعروف قرب بلد ضرمى — وفي الشعيب ، المعروف بقرى عبيد من وادي حنيفة ، وليس عندها إلا من يتعاهدها لمثل ما ذكرناه ، وكذلك جميع النواحي تفعل ذلك .

شدّته على الجناة :

وكان رحمه الله تعالى ، مع رأفته بالرعية ، شديداً على من جنى جنـاية من الأعراب أو قطع سبلاً أو سرق شيئاً من مسافر ، بحيث من فعل شيئاً من ذلك أخذ ماله نكالاً أو بعض ماله أو شيئاً منه على حسب جنايته ، وأدّبه غير ذلك أدباً بليغاً . وحُكي أنه أتى حاج من العجم ونزل قرب بوادي سبيع فسرق من الحاج غرارة فيها من الحوائج ما يساوي عشرة قروش ، فكتب صاحب الغرارة

إلى عبد العزيز يخبره بذلك ، فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة فلما حضروا عنده قال لهم : إن لم تخبروني بالغرارة ، جعلت في أرجلكم الحديد وأدخلتكم السجن وأخذت نكالاً من أموالكم . فقالوا : نغرمها بأضعاف ثمنها ، فقال : كلا ، حتى أعرف السارق . فقالوا : ذرنا نصل إلى أهلنا ونسأل عنه ونخبرك . ولم يكن بد من إخباره . فلما أخبروه به أرسل إلى ماله ، وكان سبعين ناقة ، فباعها وأدخل ثمنها بيت المال ، وجيء بالغرارة لم تتغير .. وكان صاحبها قد وصل إلى وطنه ، فأرسلها عبد العزيز إلى أمير الزبير وأمره أن يرسلها إلى صاحبها في ناحية العجم .

وذكر لي شيخنا القاضي عثمان بن منصور أن رجالاً من سرّاق الأعراب وجدوا عنزاً ضالة في رمال نفود السر، المعروف في نجد، وهم جياع ، وأخبرني أنهم أقاموا يومين أو ثلاثة مقوين ، فقال بعضهم لبعض : لينزل أحدكم على هذه العنز فيذبحها لنأكلها . فكل منهم قال لصاحبه : إنزل اليها ، فلم يستطع أحد منهم النزول خوفاً من العاقبة على الفاعل ، فألحّوا على رجل منهم، فقال : والله لا أنزل اليها، ودعوها فإن عبدالعزيز يرعاها. فتركوها وهم في أشد الحاجة اليها.

الأمن في البوادي والطرق :

وكانت الحجاج والقوافل وجباة الغنائم والزكاة والأخماس وجميع أهل الأسفار يأتون من البصرة وعمان وبلاد العجم والعراق وغير ذلك الى الدرعية ويحجون منها ويرجعون الى أوطانهم ، لا يخشون أحداً من جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بحرب ولا سرق ، وليس يؤخذ منهم شيء من الإخاوات والقوانين التي تؤخذ على الحجاج ، وبطل جميع الاخاوات والجوائز على الدروب التي للأعراب التي أحيوا بها سنن الجاهلية .

يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام لا يحمل سلاحاً بل سلاحه عصاه ، لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء .

وأخبرني أنه ظهر مع عمال من حلب الشام قاصدين الدرعية ، وهم أهل ست

نجائب محملات **ريال زكوات بوادي أهل الشام** ، فإذا جنّهم الليل وأرادوا النوم نبذوا أرحلهم ودراهمهم يميناً وشمالاً ،إلا ما يجعلونه وسائد تحت رؤوسهم.

وكان بعض العمال إذا جاؤوا بالأخماس والزكاة من أقاصي البــلاد يجعلون مزاود الدراهم أطناباً لخيمهم وربطاً لخيلهم بالليل لا يخشون من سارق ولا غيره.

العناية بالابل الضالة :

وكان في الدرعية رعية إبل كثيرة ، وهي ضوال الإبل التي توجد ضائعة في البر والمفازات جمعاً أو فرادى ، فمن وجدها من باد أو حاضر في جميع أقطار الجزيرة أتى بها الى الدرعية خوفاً أن تعرف عندهم ، ثم تجعل من تلك الإبل . وجعل عبد العزيز عليها رجلاً، يقال له « عبيد بن يعيش » يحفظها ، وجعل فيها رعــاة ، ويتعاهدها بالسقي والقيام بما ينوبها ، فكانت تلك الإبل تتوالد وتتناسل وهي محفوظة ، فكل من ضاع له شيء من الإبل من جميع البادية والحاضرة أتى الى تلك الإبل فإذا عرف ماله أتى بشاهدين ، أو شاهد ويمينه ، ثم يأخذه ، وربما وجد الواحدة اثنتين .

كثرة موارد الزكاة :

وكان ما يحمل إلى الدرعية في زمنه وزمن ابنه سعود من الأموال والزكاة والأخماس ، وغير ذلك من السلاح والخيل العتاق والإبل وغير ذلك مما يفرق على النواحي والبلدان وضعفائهم وضعفاء البو'دي ، لا يحصيه العدد .

زكاة مطير :

وأخبرني أحمد بن محمد المدلجي ، قال : كنت كاتباً لعمال علوي من مطير مرة في زمن عبد العزيز ، فكان مـا حصل منهم من الزكاة في سنة واحدة : احد عشر ألف ريال . وكان عمال برية من مطير ، رئيسهم عبد الرحمن بن مشاري بن سعود فكان ما جبي منهم اثني عشر ألف ريال ، ومن هيثم سبعة آلاف ريال ، وكانت

زكاة مطير في تلك السنة : ثلاثين ألف ريال .

زكاة عنزة وبوادي الشام :

وكان عنزة أهل الشام وبوادي خيبر وبوادي الحويطات المعروفات ومن في نجد من عنزة ، يبعث اليهم عوامل كثيرة ويأتون منهم بأموال عظيمة .

وأخبرني من أثق به قال : أناخ في يوم واحد تحت الطلحة المعروفة عند باب بلد شقرا أربع عوامل من عمال بوادي الشام ، كل عاملة معها عشرة آلاف ريال.

زكاة شمر والظفير وغيرهما :

قلت : ويأتي غير ذلك من زكاة بوادي شمر وبوادي الظفير قريب ما يأتي من عنزة ، ومن قحطان وبوادي حرب وعتيبة وجهينة وبوادي اليمن وعمان وآل مرة والعجمان وسبيع والسهول وغيرهم ما يعجز عنه الحصر .

الزكاة الشرعية فقط :

وتؤخذ منهم الزكاة على الأمر الشرعي ولا يؤخذ فيها كرائم الأموال ولا دونها إلا من غيب من إبله أو غنمه شيئاً عن الزكاة فيؤخذ منه الزكاة والنكال ، وكان يوصي عماله بتقوى الله وأخذ الزكاة على الوجه المشروع ، وإعطاء الضعفاء والمساكين ، ويزجرهم عن الظلم وأخذ كرائم الأموال .

صدقات عبد العزيز للعلماء والطلاب والضعفاء .. والأرامل :

وكان رحمه الله تعالى مع ذلك كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء والقضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد ، حتى أئمة مساجد نخيل البلدان ومؤذنيهم ، ويرسل قهوة لأهل القيام في رمضان.

وكان الصبيان من أهل الدرعية إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون اليه بألواحهم ويعرضون عليه خطوطهم فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلاً وأعطى الباقين دونه .

وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين من الغاية ، فكان منهم من يكتب اليه منه

ومن أمه وزوجته وابنه وابنته من كل واحد كتاباً وحده ، فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريالاً وأقل وأكثر .

وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده إلى عبد العزيز وابنه يستخلفونه فيعطيهم عطاء جزيلاً ، وربما كتب لهم راتباً في الدايون .

وكان كثيراً ما يفرق على أهل النواحي والبلدان كثيراً من الصدقات في كل وقت ، وكل سنة يعطي كل أهل بلد وكل أهل ناحية ألف ريال وأقل وأكثر . ويسأل عن الضعفاء والأيتام في الدرعية وغيرها ويأمر باعطائهم ، وكثيراً ما يفرق على بيوت الدرعية وضعفائها .

وكان كثيراً ما يكتب لأهل النواحي بالحضّ على تعليم القراءة وتعلم العلم وتعليمه ، ويجعل لهم راتباً في الديوان ، ومن كان منهم ضعيفاً يأمره أن يأتي إلى الدرعية ويقوم بجميع أنوابه .

وأخبرني كاتبه قال : إن عبد العزيز أخذه يوماً صداع ، فدعاني وقال : اكتب صدقة لأهل النواحي. فأملي عليّ لأهل منفوحة خمسمائة ريال وأهل العيينة مثل ذلك وأهل حريملاء سبعمائة ريال وأهل المحمل ألف ومائة ريال ، ولجميع نواحي نجد على هذا المنوال .. قال : قيمتها تسعون ألف ريال .

وأتى اليه يوماً خمسة وعشرون حملاً من الريالات، فمرّ عليها وهي مطروحة فنخسها بسيفه ، وقال: اللهم سلطني عليها ولا تسلطها عليّ ، ثم بدأ في تفريقها.

غزواته :

وإذا أراد الغزو ، معه أو مع ابنه سعود ، بعث رسله إلى رؤساء القبائل من العربان ، وواعد جميعهم يوماً معلوماً على ماء معلوم ، فلا يتخلف أحد عن ذلك الموعد ، لا حقير ولا جليل ، لا من بوادي الحجاز ولا العراق ولا الجنوب ولا غير ذلك ، فمن ذكر متخلفاً ممن تعين عليه الأمر من رجل أو فارس أُدِّبَ أدباً بليغاً وأخذ من ماله نكالاً ، والرجل الواحد أو الإثنان إذا أرسلهم عبد العزيز وابنه سعود إلى البوادي من جميع أقطار جزيرة نجد أخذوا منها النكال من

الأموال والخيل والإبل وغير ذلك ويضربون الرجال ويعذبون المجرم **بأنواع** العذاب ولا يتجاسر أحد أن يقول لهم شيئاً أو يشفع فيه بل كلهم طائعون مذعنون .

وهذا الذي ذكرت من جهة الأمن وطاعة الحاضر والباد وغير ذلك اتفق في زمنه وزمن ابنه سعود وصدر من ولاية عبد الله ، قبل أن تسلط الدولة المصرية على المسلمين بسبب الذنوب .

محاسن وفضائل لا تحصر :

وبالجملة فمحاسنهم وفضائلهم أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر ، ولو بسطت القول في وقائعهم وغزواتهم وما مدحوا به من الأشعار وما قصد بابهم من الرؤساء والعظماء من أقاصي الأقطار ، وما حمل اليهم من الأموال والسلاح والخيل ، التي لا يدركها العد والتذكار ، لجمعت فيها عدة أسفار ، ولكني قصدت الإيجاز والإختصار ..) .

عبد العزيز كما يصفه الريحاني :

يقول أمين الريحاني ، في كتابه « نجد وملحقاته » :

(.. بعد محمد بن سعود وإخوانه الأنصار ، ظهر عبد العزيز بن محمد ، الذي شرع في عهد أبيه يشنُّ الغارات ، فحمل رايات التوحيد الى أقصى الأقطار العربية وبسط نفوذ السيادة السعودية في البوادي والحضر . ولكنه على تعدد غزواته واتساع مجال جولاته ، **لم يكن غير ممهد السبيل لابنه سعود ، الفاتح الأول الأكبر .)**

ويقول الريحاني في مكان آخر من كتابه :

(.. اعتزل عبد العزيز العمل في شيخوخته ، وهو الذي قضى أكثر من أربعين سنة من حياته في الغزو والحروب فلا كَلّ ولا مَلّ ، ولا قعد بعد هزيمة ، ولا لها بعد انتصار ، فقد كان يزحف برجاله من أقصى البلاد إلى أقصاها في يومي البؤس والنعيم ، فيهبُّ يوماً على الربع الخالي ويوماً في القصيم ويوماً في

السماوة بالعراق وآخر في وادي الدواسر ، **كأنه من العناصر كالمطر او السّموم ، وقد كان مطراً للموحدين وسَموماً لأعدائهم**، يغزو في بعض السنين ست غزوات ويعود بالغنائم الى الدرعية فيقسمها بين رجاله على السواء .) .

رأيُنـــا :

القول بأن عبد العزيز لم يكن إلا ممهداً لابنه سعود الفاتح الأكبر .. قول ينطوي على كثير من الظلم لعبد العزيز ، الذي يعود اليه الفضل الأكبر ، بعد المحمدين -- محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود -- في تركيز دعائم الدولة السعودية وتقويتها وتوسيع آفاقها ونشر التوحيد وتعميم التعليم وإشاعة الأمن .. وسعود لم يزد في حجم الدولة السعودية بعد أبيه إلا فتحه الحرمين وغزوه أطراف الشام وإرساله الجيوش الى بعض بلدان الخليج ، وقد كان هذا كله ، أو بعضه ، سبباً من أسباب انهيار الملك ، والله أعلم .

نحن لا ننكر فضل سعود ومزاياه الكثيرة وجهاده الموصول ، ولكن نعته بالكبير ، وما رافق اسمه من دويّ ، بسبب حروبه ، لا يحجب عنا فضل عبد العزيز ، وهو عندنا أعظم من ابنه سعود .

عبد العزيز في شعر سلامة :

وقال الشاعر الكبير « بولس سلامة » في ملحمته الكبرى التي لخص فيها التاريخ السعودي ، يصف عبد العزيز بن محمد :

(يا سيوف الوغى دروع سعودٍ ... الوفيون منكم والكرام
قد نصرتم « عبد العزيز » أميراً ... فبكم عزّ رمحُه والحسام
صائن الدين من خطوب عوادٍ ... وإمام الزهادة الصوّام
الوديع المهيب خَلقاً وخُلقاً ... المصلي والعابد القوّام
بسط الأمن في مباسط نجدٍ ... فتآخت صقوره والحمام
الحبارى في ظله آمناتٌ ... **ومع النمر** تسرح الأنعام

مصرعــه :

حائط الأمن غالــه سيف وغد | حينما كان في السجود الإمــام
عبدَ اللهَ منــذ ما أذّن الداعي | وأذكى عقل الصبي احتلام
فتلقّى النعيمُ روحَ تقيٍّ | خشيةُ الله بدؤه والختــام
شرُفَ اثنان من دمٍ وائليٍّ : | باترٌ غــادرٌ وموتٌ زؤام
ومضى الخلد بالوسام دمياً | إنمــا مصرع الشهيد وسام
سيفلُ الحصونَ سيف سعود | ومن الضرب تستجير الأكام
للجبان الغدّار لعنة أجيا | لٍ وحربٌ مبيدةٌ وانتقام
للموالين عزةٌ وصفاءٌ | للعداة الإرمال والإيتام